لفتوة فى اللغة وكتب الأدب

وحياة الفتيان فى الجاهلية وعصور الاسلام

نقص قواميس اللغة العربية وقصورها عن تحرير المعانى

للأستاذ ضـــــياء الدين الدخيلى

[تتمـــة ما نشر فى العدد الماضى]

والتقطف من ديوان الحماسة اختيار أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، وقد شرحه الشيخ أبو زكريا التبريزى الشهير بالخطيب وكان تلميذاً للمعرى .

قال النابغة الجعدى (١) :

ألم تعلمى أنى رزئت محاربا ... فما لك منه اليوم شىء ولا ليا

(فتى) كملت خيراته غير أنه ... جواد فما يبقى من المال باقيا

قال الخطيب فى شرحه أنه يخاطب صاحبته أم محارب وقوله ألم تعلمى : ظاهره تقرير ، وإنما هو توجع وتلهف على ما فاته من الرئى لمحارب ابنه .

وقال ابن أهبان الفقعسى يرثى أخاه (٢)

على مثل هام تشق جيوبها ... وتعلن بالنوح النساء الفواقد

(فتى الحى) إن تلقاه فى الحى أو يرى ... سوى الحى أو ضم الرجال المشـــاهد

طويل نجاد السيف يصبح بطنه ... خميصاً وجاديه على الزاد حامد

قال الخطيب جادية الذى يجتديه ، ويطلب منه جعل الفتوة والرئاسة مسلمة له فى كل حال وعلى كل وجه ألا ترى أنه قال هو الفتى بين رجال الحى وعند لقائك إياه فيهم وقوله أو يرى سوى الحي ، أى فى مكان آخر وفى قوم آخرين بدلا من الحى وقوله أوضم الرجال المشـاهد معناه وهو الفتى إذا حصلت وفود القبائل فى مجامع الملوك وقال سلمة الجعفى يرثى أخا (٤)

أقول لنفسى فى الخـلاء ألومها ... لك الويل ماهذا التجلد والصبر

ألم تعلمى أن لست ماعشت لاقيا ... أخى إذ أتى من دون أوصاله القبر

(١) ج ٣ ص ٥١ (٢) ج ٣ ص ٥٣ (٤) ج ٣ ص ٥٩

[فتى] كان يعلى السيف فى الروع حقه ... إذا ثوب الداعى وتشـــق به الجزر

[فتى] كان بدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

قال الخطيب ثوب الداعى أى دعا واصل التثويب أن يكون الرجل فى مغازة لا يهتدى بها فيلوح بثوبه فربما رآه إنسان فيهديه وينجيه ثم استعمل فى غيره .

وقال سالم بن وابصة الأسدى (١)

أحب [الفتى] ينفى الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هجرا

وقال زياد بن حمل (٢)

كم فيهم من (فتى) حلو شمائله ... جم الرماد إذا ما أخمد البرم

قال الخطيب كم للتكثير وموضعه رفع بالابتداء وخبره من فتى وجم الرماد كثيره ولا يكثر الرماد إلا لكثرة الغاشية والأضياف والبرم الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر (نوع من القمار) والمراد إذا أخمد البرم النار ابخله .

وقال العريان (٣)

ورحت إلى دار امرىء الصدق حوله ... مرابط أفراس وملعب (فتيان)

ومنحر مثناث يجر حوارها ... وموضع إخوان إلى جنب إخوان

قال الخطيب : وملعب فتيان ، لأنهم يجتمعون عنده لسخائه وقوله : يجر حوارها ، لأنها تجزر وهو فى بطنها فيجره من بطنها وروى فى الحماسة (*) ولم يذكر قائلهما :

وليس (فتى الفتيان) من جل همه ... صبوح وإن أمسى فقضل غبوق

ولكن (فتى الفتيان) من راح أو غدا ... لضرّ عدوّ أو لنفع صـــديق

وقد اعترض علينا الأستاذ محمد عبد القادر ، حيث أننا لم نذكر القائل وقد استشهدنا بالبيت الثانى أخذناه من تاج العروس ولم يذكر قائل البيتين فى ديوان الحماسة إلا أن الخطيب التبريزى فى شرحه بعد أن قال الصبوح شرب الغداة والغبوق شرب الحمرة فى العشى . روى الأصمعى أن أكثم بن صيفى قال : اصحبْ من

(١) ج ٣ ص ٨٥ من حماسة أبى تمام (٢) ج ٣ ص ١٨٢

(٣) ج ٤ ص ٨٤ (٤) ج ٤ ص ١٠١

الإخوان منْ إن صحبته زانك ، وإنْ خدمته صانك ، وإنْ اختللت عانك ، إن رآى منك حسنةً جازاكَ عليها ، أو سقطة أغضى لك عنها ، لا تختلف عليك طرائقه ، ولا تخشى بوائقه . ثم أنشد البيتين : وليس فتى الفتيان الخ . ومن هذا يتبين قدمهما وصحة الاستشهاد بهما .

وقال أبو كبير الهذلى (عويمر بن حليس أحد بنى سعد بن هذيل) (١)

ولقد سريت على الظلام بمغشم جلدٍ من (الفتيان) غير مُثقل

قال : سرى وأسرى بمعنى واحد ، وعلى الظلام : أى فى الظلام ويجوز أن يكون وعلى الظلام فى موضع الحال أى وأنا على الظلام أى راكب له ، والمغشم من الغشم : وهو الظلم ، فإن قيل إذا كان السرَى لا يكون إلا ليلا ، فلم قال على الظلام ، ولم جاء فى القرآن الذى أسرى بعبده ليلا ؟ قيل المراد توسط الليل والدخول فى معظمه ، والجلد : الصلب القوى . وقوله غير مُثقل : أى كان حسن القبول محبباً إلى القلوب ، قال ، وقال أبو رياش (المغشم) الذى يغشم الأمور ويخلطها من غير تمييز ، وقيل المغشم ههنا : من إذا اختفى عليه الطريق اعتسف أى ركب الطريق على غير هداية ولا دراية .

وروى فى الحماسة لامرأة من طيء (٢)

دعا دعوة يوم الشرى يا لمالك ومن لا يُجَب عند الحفيظة يكلم

فيا ضيعة (الفتيان) إذ يعتلونه ببطن الشرى مثل الفنيق المدمَّم

(الشرى مكان ، والحفيظة الغضب أى استغاث هذا الرجل بهذا الموضع فلم يجب ، وقولها يكلم : كناية عن الغلبة والقتل ، والعتل : القود بعنف ، يقال عتله يعتله ، ويا ضيعة الفتيان : لفظه لفظ النداء ومعناه الخبر كأنها قالت ضاع الفتيان جداً إذ كان أعداؤه يعتلونه فى قودهم إياه وهو كأنه فحل مشدود الفم خوفاً من صياله ، والفنيق : الفحل ، والمدمَّم : المشدود الفم الهائج الممنوع ، وإنما يفعل به ذلك إذا هاج خوفاً من عضاضه .

وقال جابر بن ثعلب الطائى (٣) :

وقام إلى العاذلات يلمنى يقلن ألا تنفك ترحل مرحلا؟

فإن (الفتى) ذا الحزم رام بنفسه جواشن هذا الليل كى يتمولا

وتزوى بمقل المرء قلة ماله وإن كان أسرى من رجال وأحولا

(أى لا تزال ترتحل ارتحالا ومرحلا انتصب على المصدر وجواشن الليل صدوره وأوائله وأحواله أكثر حيلة) .

وقال أبو النشناش (١) :

فللموت خير للفتى من قعوده عديماً ومن مولى تدب عقاربه

(أى الموت خير للرجل من قعوده راضياً بفقره وبإفضال مولى يؤذيه بالمن ، ودبيب العقارب : كناية عن الأذى وانتصب عديماً على الحال .

وقال آخر :

إذا القوم قالوا من فتى لمظيمة ؟ فما كلهم يدعى ولكنه الفتى

فهذه النصوص الأدبية أظن أن فيها الكفاية لمن ارتاب فى دلالة فتى على الشهامة والفروسية ، ونود أن ننبه القارىء الكريم إلى أن الفتوة فى العصر العباسى كانت تطلق على اجتماع بعض المياسير على اللهو واللذات تجمعهم الملاهى والعبث والترف والسماع ، فقد وصف عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع حال الفتيان الذى كان يعاشرهم فقال (٢) :

فى فتية بذلوا فى القصف ما ملكوا وأنفقوا فى التصابى العرض والنشبا

وجاء فى (نهاية الأرب) فيمن شرب الخمر واشتهر بها ، (ومنهم والبة بن الحباب الأسدى وهو الذى ربى أبا نواس وعلمه الفتوة وقول الشعر) ويفسر لنا أبو نؤاس تلك الفتوة التى درسها على والبة بقوله :

ما استكمل اللذات إلا فتى يشرب والمرد ندماه

هذا يغنيه وهذا إذا ناولهُ القهوة حيّاه

وقوله :

متيمُ القلب معناه جادت بماء الشوق عيناه

إن كان أبكاك الهوى مرة فطالما أضحكك الله

لا خير فى العاشق إلا فتى لاطف مولاه وداراه

ودافع الهجر وأيامه فالوصل لاشك قصاراه —

— (أى غايته)

(١) ج ١ ص ٤٢

(٢) ج ص ١١٣ من شرح حماسة أبى تمام للتبريزى طبعة بولاق

(٣) ج ١ ص ١٦١

(١) ج ١ ص ١٦٧

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ١٦٥

وروى الفواجى فى حلبة الكميت أن أبا الهندى كان متهمكا فى الخمر مغرماً بالشرب ، ودخل حانة خمار فشرب عنده إلى أن غلب عليه السكر فنام ، ودخل جماعة (فتيان) فرأوه على تلك الحالة فقالوا للخمار ما حال هذا ؟ قال طيب العيش قالوا فألحقنا به فسقاهم حتى انتهوا إلى حاله فانتبه أبو الهندى فرآهم فقال للخمار ما حال هؤلاء ؟ فقال مبسوطون ، قال فالحقنى بهم ، فسقاه حتى لحق بهم ، وابتهوا فقالوا مثل ذلك إلى أن مضت عليهم عشرة أيام ولم يلتق بعضهم ببعض ثم أنشد أبو الهندى :

ندامى بعد عشرة تلاقوا تضمهم (الفتوة) والسماح
نقيم معاً وليس لنا تلاق بيت ما لنا منه براح

وجاء فى الأغانى[1] (وبعد وفاته كان الفتيان يجيئون إلى قبره ويصبون القدح إذا انتهى إليه على قبره) وجاء فى مسالك الأبصار عن حانة عون (أن عوناً كان ظريفاً طيب الشراب نظيف الثياب وكان فتيان الكوفة يشربون فى حانوته ولا يختارون عليه أحداً)

وجاء فى حلبة الكميت قال السرى الرفا الموصلى :

وفتيـة زهر الآداب بينهم أبهى وأبهج من زهر الرياحين
مشوا إلى الراح مشى الرخ فانصرفوا
يمشون من شربها مشى الفرازين

(فى المنجد الرخ طائر وهى كبير وأيضاً قطعة من قطع الشطرنج الجمع رخاخ ورخخة : وفرازين جمع فرزان وهى الملكة فى لعب الشطرنج)

وبدهى أن الفتوة فى النصوص الأخيرة لم تستعمل فى المعانى التى استعملت فيها إشعار الحماسة وغيرها التى تقدمت ، وإنما استعملت فى معنى الانغماس فى اللهو والسكر والسماع ، وقد نسب الثعالبى فى كتابه (الخاص للخاص) بيتين للأعشى أورد فيهما (فتى) فى ذلك المعنى فقال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكى يعلم الناس إنى (فتى) أتيت المروءة من بابها

وقد أكثر فى الأغانى استعمال الفتوة فى هذا المعنى فقد جاء فى الجزء السابع[2] وكان الوليد بن يزيد من (فتيان بنى أمية) وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم ، وكان فاسقاً خليعاً متهماً فى دينه مرمياً بالزندقة وشاع فى أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل .

وعن الوليد أيضاً أنه أبلغه أن جماعة من بنى مروان يعيبونه بالشراب فلمنهم وقال أنهم ليعيبون على ما لو كانت لهم فيه لذة ما تركوه وقال هذا الشعر وأمر عمر الوادى أن يغنى فيه وهو من جيد شعره ومختاره :

ولقد قضيت وأن تجمل لتى شيب — على رغم العدا لذاتى
من كاعبات كالدمى وعناصف وسراكب للصيد والغدوات
فى (فتية) نأبى الهوان وجوههم شم الأنوف حجاجح سادات
أن يطلبوا بترائهم يعطوا بها أو يطلبوا لا يدركوا بترات

وفيه[1] كان المذلى القماش يغدو إليه (فتيان قريش) وقد عمل عمله بالليل ومعهم الطعام والشراب والدراهم فيقولون غدنا الخ وقد قال فيه[2] فى التعريف بالمذلى هذا أنه سعيد بن مسعود كان ينقش الحجارة بأبى قبيس (جبل فى الحجاز) وكان فتيان من قريش يروحون إليه كل عشية فيأتون بطحاء يقال لها بطحاء قريش فيجلسون عليها ويأتيهم فيغنى لهم ويكون معهم .

وفى الأغانى[3] أن وضاحاً هوى امرأة يقال لها روضة ، فذهبت به كل مذهب وخطبها فامتنع قومها من تزويجه إياها وعاتبه أهله وعشيرته فقال فى ذلك :

يا أيها القلب بعض ما تجد قد يعيش المرء ثم يتئد
قد يكتم المرء حبه حقباً وهو عميد وقلبه كمد
ماذا تريدين من (فتى غزل) قد شفه السقم فيك والسهد ؟

حدث الأصمعى عن الخليل بن أحمد أن وضاحاً كان يهوى امرأة من كندة يقال لها روضة .

وجاء فى الأغانى[4] عن اسحاق بن ابراهيم الموصلى عن أبيه قال : دخلت الرى فكنت آلف (فتياناً) من أهل النعم وهم لا يعرفونى فطال ذلك علىّ إلى أن دعانى أحدهم ليلة إلى منزله فبت عنده فأخرج جارية له ومد لها ستارة فتغنت خلفها فرأيتها صالحة الآداء كثيرة الرواية فشوقتنى إلى العراق وذكرتنى أيامى بها فدعوت بعود فلما جيء به اندفعت فغنيت صوتى فى شعرى .

(١) ج ٢ ص ١٧٩ (٢) ج ٥ ص ٧٧

(١) ج ٥ ص ٦٧ (٢) ج ٥ ص ٦٥
(٣) ج ٦ ص ٢١٢ (٤) ج ٥ ص ١٨٨

أنا بالري مقيم في قرى الري أهيم

وقد كنت صنعت هذا اللحن قديماً بالري فخرجت الجارية من وراء الستارة مبادرة إلى فأكبت على رأسي وقالت أستاذي والله فقال لها مولاها أي أستاذيك هذا ؟ قالت ابراهيم الموصلي فإذا هي إحدى الجواري اللاتي أخذن عني وطال العهد بها فأكرمني مولاها وبرني وخلع علي فأقمت مدة بعد ذلك بالري وانتشر خبري بها ثم كتب بحملي إلى والي البلد فأشخصت .

فترى أن كلمة (فتيان) قد استعملت في العصر العباسي وأريد بها إخوان الطرب الذين جمعتهم العشرة على موائد اللذات فهؤلاء الفتيان الذين تعطينا القصص صورة مصغرة لحياتهم في العصر العباسي كانوا إخوان لهو وسكر وعربدة وهذا ما يحدد حياة الفتوة في ذلك العصر المترف كما توضح معالمها هذه القصص المنثورة في مجلدات الأغاني وغيرها من كتب الأدب وإليك صورة أخرى لحياة الفتوة الخليعة في العصر الأموي ، جاء في الأغاني (١) في أخبار الدلال أنه من ظرفاء المدينة في العصر الأموي وكان جميلا حسن البيان ، ومن أحضر الناس جواباً وأحجهم . وكان سليمان بن عبد الملك قد رق له حين خصى غلماً قال وأن الدلال خرج يوماً مع (فتية من قريش) في نزهة لهم وكان معهم غلام جميل الوجه فأعجبه وعلم القوم بذلك فقالوا قد ظفر نابه بقية يومنا ، وكان لا يصبر في مجلس حتى ينقضي وينصرف عنه استثقالا لمحادثة الرجال ومحبة في محادثة النساء فغمزوا الغلام عليه وفطن لذلك فغضب وقام لينصرف فأقسم الغلام عليه والقوم جميعاً فجلس وكان معهم شراب فشربوا وسقوه وحملوا عليه لئلا يبرح ثم سألوه أن يغنيهم فغناهم فاستطير القوم فرحاً وسروراً وعلا نعيرهم فنذر بهم (علم) السلطان وتعادت الأشراط (تعادت من العدو وهو سرعة الجري) فأحسوا بالطلب فهربوا وبقي الغلام والدلال وما يطيقان براحاً من السكر فأخذا فأتى بهما أمير المدينة الخ فترى حياة هؤلاء الفتيان حياة تحلل من قيود العرف وتهرب من أحكام الشرائع الأدبية المتعارفة في عصرهم وهذا نموذج لحياة الفتوة في العصر الأموي وإذا تراجعنا للعصر الجاهلي فإن طرفة يحدثنا عن فتوته في معلقته والأعشى في بيتيه المتقدمين ونجد الفتوة إذاك مزيجاً من الطرب والأنس والفروسية والنجدة وقد تكون نجدة وشهامة ورجولة كاملة لا غير كما في أشعار الحماسة التي أوردنا .

ومن هذا ترى أن الفتوة قد اختلف الناس باختلاف العصور والأزمان والبلدان — في فهم معناها ولولا ضيق الوقت لأتينا على عرض تاريخي مفصل للفتوة في الجاهلية وعصور الإسلام . إذ اقتصر حديثنا هذا على استعراض ما عثرنا عليه من النصوص الأدبية الموثوق بها لإثبات دعوانا السابقة من دلالة الفتوة على الشهامة والفروسية والنبل وكمال خصائص الرجولة ، وعسى أن ينال ثقة الناقد الكريم وهل ندري هل يزيف شواهدنا أيضاً ؟ أم يغضي على مضض وفي العين قذى وفي الحلق شجا : الحق أن معنى (فتى) قد تجلى ولا غبار بعد اليوم عليه ، وقد وضح الصبح لذي عينين والذي استهدفته من إطالة الحديث إعطاء القراء مثلا محسوساً لنقص كتب اللغة وعدم شرحها معاني المفردات كما هي إذ قد رأيت في مقالي الأسبق في العدد (٧٨٢) أنها أجمعت على تفسير كلمة فتى بالرجل الكريم السخي ولم تلوح كلها أو جلها إلى ما تضمنته الكلمة من معاني الجلد والفروسية والنجدة والبطولة واستكمال مزايا الرجولة وصفات الشهامة في حين أن النصوص الموثوق بها والتي وضعتها بين يديك تصرح في تكذيب قواميس اللغة ، ورميها بأنها سطحية لا تمنح الألفاظ إلا لمحة الطائر وفطنة المجلان)

ضياء الدغيلي

(١) ج ٤ ص ٢٨٢

يفيد القاضي والمتقاضي والمحامي والفقيه كتاب

مبادىء في القضاء الشرعي

الأستاذ الزين القاضي

يطلب من دار الرسالة بالقاهرة

ومن الأستاذ علي عبد الله بالمنصورة

وثمنه ٢٠ قرشاً عدا البريد